

سحواج امحمد

## إيقاع التناصية

الحمد لله الذي خصنا بالهاشمي المصطفى المرونق  
ثم الصلاة دائماً على الذي من نوره اكتسب كل شارق  
و آله و صحبه و تابعيه و الأولياء ممن مضى و من بقي  
و بعد فاعلم يا أخي و أصغ إلى شمائل قد حصرت في المشرق  
الزهد و الورع و التورع و عدم النوم فقل القلب  
فهكذا خذ دابه و صنعه و الصوم دائماً في حر محرق  
و إن أتى الوعظ فقل كأسد يجول في البدا في كل الطرق  
يقبض كالبحر لكل جهة يعطي المسائل بلا تملق  
بيدو على الزوار من خلوته كشمس أشرقت على الحدائق  
قد باع دنياه بأخرته و قال جوهر كغير لائق  
بيادر الحق ولا يكتمه يلاطف الناس من الشر يقي  
فإن ترد غنى فقف ببابه يعطي الدنانير كقشر الفستق  
مولى الكرام إن تقل وجوده أوسع من بر و بحر دافق  
حدث على سره ما شئت و كن معتصماً بحبله الموثق  
كم صعوبة سهلها و كم كم كان بفضلها عبور زورق

كم مرأة دعت به و كم و كم قد استغيث باسمه في الطلق  
و كم أسود لهجت بذكره و أفصحت به بحسن منطق  
عطفه يا رب على أرواحنا و اجعله كافلاً و خير معتق  
حصن الفقير و الوضيع و الغني سيف الورى به يغاث في اللقي  
شيخ الشيوخ فاعتقد أستاذنا قطب الورى الشيخ الهمام المشرقى  
و الله ما بمثله حدثنا فتى و لا رآه في المؤتلق  
هلم يا قوم إليه و أسرعوا شـودوا مطاياكم له في الغسق  
فعجباً و عجباً لمنكر بدرأ أضاء نوره في الأفق  
عم الأقاليم على أرجائها سيان من في معرب و مشرق  
فكل ذا من الوقود فاستق و الشمس فد تخفى على الخلائق  
يا أخي سلم لهم تسلم و لا تكون في الليل كحـب أحـمق  
فالله يدفع عن القوم البلا و يضرب الأعداء بكل صاعق  
و لا تبالع و اعتقد و صلهم لحضرة القدس فخذ و حقق  
ألم تطالع يا فتى كتبهم في قصص مشهورة كالشـفق  
إياك و الخوض في مذهبهم و إن تكن سقطت وسط الزلق  
و إن ترم طعنأ على فعلهم تضرب لا ريب بسف العنق  
تضرب بالسهام من أيديهم و صعقة النبال و المنجـق  
تبأ لمنكر على قولهم تبأ لمن لعرضه لم يتق

عليك يا أخي بحضرتهم في هيئة مرسومة كالحلق  
و لا تمار و اعتقد فضلهم عن كل سابق و كل لاحق  
و لازم الصمت بمجلسهم و إن سألت بالجواب فانطق  
فهنيء العطف قد سادوا على الأقطار فاحذروا من التفرق  
سدتم على الأقران بالمجد و بالفضل المضعف كجبل طارق  
رغمًا على الحساد قد رقيتم لقنة المجد بفضل الخالق  
و هكذا سيرة أسلافكم مع شيوخ قد مضت في السابق  
كعدة الفرد فقل و أحمد و شيخه ثم الإمام المشرقي  
يليكم قوم كرام خيرة أجل من جيش الرشيد المنقي

**سيرة و حياة عتبة الحاج الجيلاني بن الجيلاني بن ابن عبد الحكم العطافي ، ينظر**

**مداخلة الملتقى الأول لأعلام حوض الشلف للأستاذ يوسف بن نافلة ( جامعة الشلف ) .**

**إيقاع التناسل في النقد المعاصر:**

تتمثل مسألة التناسل L'interxtualité من أهم المسائل التي عنى بها النقاد في العصر الحديث و هذا للوقوف على لب العملية الإبداعية و ربما ما كان يصبو إليه هؤلاء من خلف ذلك هو استبيان ميزة التفاعل النصي الداخلي ، فقد صار النص نوع من الإنتاجية يحمل في ثناياه ثقافات متعددة و إيديولوجيات متباينة ، و أصوات متجاورة . و قد تتبته لهذه الظاهرة المفكر و الناقد الروسي ميخائيل باختين ، فيما أطلق عليه بالحوارية ( Dialogisme ) ثم أرقت المفهوم الباحثة جوليا كريستيفا إلى التناسل ، ثم توسع المفهوم على يد تزقن تودوروف.

و نشير ها هنا ، إلى أن باختين لم يصطنع مصطلح التناص بل مصطلح الحوارية ، و في مرات كان يستبدلها بمصطلحات أخرى ، مثل مصطلح ( تعددية الأصوات ) Polyphonie و مفهوم تعددية اللغات Plurilinguisme . و تقوم فلسفة الحوارية أو التناص على أن كل نص هو تفاعل مجموعة من النصوص أو تقاطعها<sup>٢</sup> .

و تعد كريستيفا ممن لهم قصب السبق في بلورة مفهوم التناص في النقد الحديث<sup>٣</sup> ، فهي ترى أن التناص في أبسط مفهوماته هو وجود علاقة بين ملفوظين énonces<sup>٤</sup> .

### التعاقب و التجاور بين السرقات الأدبية و التناص :

يقول عبد المالك مرتاض في هذا الصدد : « إنا بدون العودة إلى التراث النقدي العربي لمحاولة استكناه ما قد يكون فيه من بذور لمثل هذه المسألة ، و سواها أيضاً كثيراً لا يتأتى لنا أن نسهم في إنتاج نظرية قائمة على التناص ، و التطلع إلى إثراء حقول المعرفة الإنسانية<sup>٥</sup> ، و هو موقف موضوعي ينصف السلف و يعطي لكل ذي سبق حقه في سلم التطورات العلمية و الابتكارات الجديدة . و ما يدعم رؤية مرتاض هو ما يوضحها قول صبري حافظ : « التناص واحد من المفاهيم الحديثة التي تجدها بعض البذور الجنينية الهامة في نقدنا العربي القديم ، و التي تطرحها المحاولات النقدية المعاصرة في سعيها الدائب لتأسيس نظرية أدبية حديثة<sup>٦</sup> » و من المحاولات الجادة التي انتقلت إلى التأنيث لمفهوم التناصية في علم البديع، للمزاوجة بين القديم و الحديث جهود حافظ صبري في طرحه مجموعة من المصطلحات البديعة التي يمكنها أن تساهم في بلورة بعض ملامح هذه الإضافات<sup>٧</sup> ، كالاقتباس و التضمين ، و التوليد

و غيره.<sup>٨</sup> لأن المنظومة من حيث هي نص شعري « ليس ذاتاً مستقلة ، أو مادة موحدة ، و لكنه سلسلة من العلاقات مع نصوص أخرى ، و نظامه اللغوي مع قواعده ، و معجمه جميعها تسحب إليها كما من الآثار و المقتطفات من التاريخ ، و لذا فإن النص يشبه من معطاه معطى جيش خالص ثقافي بمجموعات لا تحصى من الأفكار و المعتقدات و الإرجاعات التي تتآلف<sup>٩</sup> و من ثمة فكل نص هو لوحة فسيفسائية من الاقتباسات ، و تشرّب و تتحول لنصوص أخرى.<sup>١٠</sup>

**مرجعية إيقاع التناسل في منظومة ابن عبد الحكم العطافي:**

إن أهم المراجع التي أسهمت في توليد إيقاع التناسلية ذات أصول أدبية و دينية و تاريخية. و يتم ربط المرجع الأدبي بالتضمين ، و المرجع الديني بالاقتباس ، و المرجع التاريخي بالتلميح.<sup>١١</sup>

#### أ\_ المرجع الأدبي ( التضمين ) :

من حيث الاصطلاح السيميائي وجه من أوجه تداخل النصوص ، و تعانقها .  
إن منابع منظومة ابن عبد الحكم العطافي ذات بعد شعري و نثري .

#### ١١\_ المرجع الشعري :

إن الشاعر ابن عبد الحكم يستحضر في المقطع الأول مناقب و شمائل العربي بن شريقي ، فنلفيه يتناسل مع قول الشاعر الفرزدق في مدح علي بن زيد العابدين حيث يقول :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته      و البيت يعرفه و الحل و الحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم      هذا التقى النقي الطاهر العلم

و نجد أيضاً دلالة و معنى المقطع الأول من المنظومة في قول الشاعر حسان بن ثابت في داليتة :

فأمسى سراجاً مستتيراً و هادياً      يلوح كما لاح الصقيل المهنّد

و يواصل الشاعر تتناصه مع الموروث الشعري ففي السطر السابع من المنظومة ، و في معرض حديثه عن حكمة و شجاعة الشيخ ، يستحضر صدر البيت الشعري للمسلم بن الوليد :

و في البذل و الإعطاء ليث مصمم ....

و لعل الشاعر يقصد في السطر الثامن من المنظومة « يفيض كالبحر » بسعة و غزارة علم الشيخ ، و في هذا المعنى إنما يستحضر قول الشاعر المتنبي فقال :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي و أسمعت كلماتي من به صمُّ

انطلق الشاعر في منظومته \_ فيما يبدو \_ في إحداث التناص في بيت الشاعر المخضرم "

حسان بن ثابت "

لساني صارم لا عيب فيه و بحري لا تكدره الدلاء

و هو كلام مرجعي<sup>١٢</sup> ضمته ابن عبد الحكم العطايفي نظمه ، « ليضيف إليه شحناً إضافياً

، و إحياءاً مثيراً و بعداً فنياً و جمالياً »<sup>١٣</sup> ، لأن حال الشيخ تشبه حال " حسان بن ثابت " في

الدفاع عن الحق .

و قد تكشف في مجال التضمين الشعري أن ابن عبد الحكم العطايفي قد خص الأسطر

الآتية:

٩ \_ يبدو على الزاوية من خلوته كشمس أشرقت على الحدائق .

٢٢ \_ هلم يا قوم إليه و أسرعوا شدوا مطاياكم له في الغسق .

٢٣ \_ فعجباً و عجباً في الأفق المنكر بديراً أضاء نوره في الأفق .

تبرز هنا فكرة التواصل ، و الحوار بين النصوص من خلال علاقات التداخل الجلية ، و هو تداخل نصي - كما يرى " جيران جنيت " يسمو و يعلو بفضل هذا التواجد اللغوي الحسي ، إذ أن عبد الحكم يدرك قيمة النص المرجعي ، و أهميته في الإبلاغ ، و التبليغ ، لذلك ضمن كلامه بيتاً شعرياً :

أنت كالبحر في السماحة و الشمس علواً و البدر في الإشراق

و قد اكتفى الشاعر في مواضع أخرى باسم التضمين بقول أبي فراس الحمداني :

سيذكرني قومي إذا جدّ جدّهم و في الليلة الظلماء يفتقد البدر

و في السياق موضوعه المدح بدا ابن عبد الحكم العطافي في السطر ٤١ من المنظومة يتناص مع البيت الشعري للفرزدق يقول :

إنّ الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز و أطول

أ ٢ \_ المرجع الثري :

ضمن ابن عبد الحكم العطافي منظومته ، الأقوال المأثورة ، و الكلام الشائع لأغراض فكرية ، و بلاغية .

\_ الأقوال المأثورة :

تسمح بعض الاتجاهات السيميائية الحديثة للمبدعين في نظرية التناص أن يقيموا نصوصاً على أنقاض نصوص أخرى .

و تدرج الأقوال المأثورة التي ضمنها ابن عبد الحكم كلامه في هذا المنحى في قوله :

٢٠ \_ شيخ الشيوخ فاعتقد أستاذنا قطب الوري الشيخ الهمام المشرقي .

٤٠ و هكذا سيرة أسلافكم مع شيوخ قد مضت في السابق.

فهو يستحضر القولين المأثورين التاليين :

" خير خلف لخير سلف "

" الدواء في رأس الشيخ "

ب \_ **المرجع الديني ( الاقتباس ) :**

تبلور مصطلح الاقتباس عند بعض البلاغيين المتأخرين ، فصار يدل على تضمين الكلام شيئاً من القرآن ، أو الحديث النبوي الشريف ، و غدا ابن الأثير<sup>١٤</sup> إلى أن الكلام يكتسب به طلاوة ، و حلاوة ، و هو ضربان : تضمين كلي تذكر فيه الآية ، أو الحديث<sup>١٥</sup> ....  
أما الممارسة النقدية الحديثة فتعدّ الاقتباس وجهاً من أوجه التناصية ، و نضن أن ابن عبد الحكم كان يدرك أهمية هذه الوسيلة البلاغية في الإخبار ، و التبليغ ، و الإقناع و التأثير ، لذلك ورد نظمه مقنع و مؤثر، لتوفيقه في استخدام المراجع الدينية و حسن استعمالها في مواضعها اللائقة .

ب ١ \_ **مرجعية الحديث النبوي :**

يلجأ ابن عبد الحكم إلى تضمين نظمه بعض الآثار الشريفة من غير أن يصرح بها لأغراض فكرية و بلاغية نحو قوله :

٨ \_ يفيض كالبحر لكل جهة يعطي المسائل بلا تملق .

٩ \_ قد باع دنياه بأخرته و قال جوهر ك غير لائق .

٢٦ \_ يا أخي سلم لهم تسلم و لا تكون في الليل كحب أحرق .

٣٠ \_ إياك و الخوض في مذهبهم و إن تكن سقطت وسط الزلق .

٣٦ \_ و لازم الصمت بمجلسهم و إن سألت بالجواب فانطق .

٣٧ \_ فهنيء العطاف قد سادوا على الأقطار فاحذروا من التفرق .

### النبيات العميقة : ١٦

" لا يفق و مالك في المدينة "

" اسلم تسلم يأتيك الله أجر مرتين "

" يأتي زمان على أمتي تتفرق إلى اثنين و سبعين شعبة كلها في النار إلا واحدة فهي في

الجنة "

" من كان يؤمن بالله و رسوله فليقل خيراً أو ليصمت "

" يأكل الذئب من الغنم الشاة القاصية "

و قد كان نسج ابن عبد الحكم النظمية بحاجة إلى فن : " الاقتباس " « لتدعيم الخبر ، و

تنزيله في ذهن المتلقي منزلاً حسناً ..... »<sup>١٧</sup>

ب ٢ \_ مرجعية القرآن الكريم :

اعتبر البلاغيون الاقتباس نوعاً من أنواع البديع الحلوة التي تزيد الخطاب المضمّن عذوبة و

طلاوة .<sup>١٨</sup>

و قد وفق ابن عبد الحكم استعماله ، و تفنن في توزيعه بحسب أغراض رسالته الشعرية،

إذ أكثر الشاعر من ممارسته و لكن اكتفينا بنموذج دال ، لإظهار متعة الاقتباس من النصّ

القرآني ، و منها قوله :

١٤ \_ حدث على سره ما شئت و كن معتصماً بحبله الموثق .

البنية العميقة : النص القرآني المقتبس .

" و اعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى و نعم النصير " ١٩

### خلاصة

كانت ديباجة ابن عبد الحكم العطافي - كما بينت الدراسة التناصية - تنهل من رصيد ثقافي واسع مراجعه : أدبية ، و دينية ، و تاريخية ، وهي روافد تمثل عصارة من التراث العربي الفني الخالص ، و من المعارف الإسلامية و التجارب الإنسانية ، و هذه الخاصية قد زادت المنظومة حسناً و عمقاً و ثراءً . و قد كان جهد الناظم في هذه الممارسة موجهاً إلى شحن أسلوبه بالمزيد من المعاني الهائلة ، و الطاقات الفاعلة .

### هوامش و إشارات :

١ \_ يقابل المصطلح الفرنسي Intertexte التناص ، و يقابل المصطلح الفرنسي

L'intextualité التناصية ترجمها عبد المالك مرتاض : نفضلها و نوثرها .

٢ \_ ينظر ، حميد لحمداني ، القراءة و توليد الدلالة ، ط ١ ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ،

الدار البيضاء ، ٢٠٠٣ ، ص ٢٣ .

٣ \_ ينظر ، حافظ صبري ، التناصية ، و إشارات العمل الأدبي مجلة البلاغة المقارنة ، "ألف" ،

العدد ٤ ، ص ٢٣ .

٤ \_ ينظر ، م ن ، ص ٢٣ نقلاً عن Tzvetan Todorvo : mikhail Bakhtine , le

principe dialogique , seuil \_ ١٩٨١ \_ p٩٥ \_ ٩٦

٥\_ ينظر مقالة ، فكرة السرقات الأدبية و نظرية التناص ، مجلة علامات في النقد الأدبي :  
المجلد الأول ، ص ٨٤ .

٦\_ ينظر مقالة ، التناصية و إشارات العمل الأدبي ، مجلة البلاغة المقارنة " ألف " ، ص ٩ .

٧\_ ينظر المرجع نفسه ، ص ٢٧ .

٨\_ ينظر المرجع نفسه ، ص ٢٦ .

٩\_ محمد الغدامي ، الخطيئة التكفير ، ص ١٣ .

١٠\_ المرجع نفسه ، ص ١٣ .

١١\_ ينظر ، رابح بوحوش ، اللسانيات و تطبيقاتها على الخطاب الشعري ، ط ١ ، دار

العلوم، عناية ، الجزائر ، ٢٠٠٦ ، ص ٢٥٩ .

١٢\_ ينظر المرجع نفسه ، ص ٢٧٠ .

١٣\_ ينظر المرجع نفسه ، ص ٢٧٠ .

١٤\_ ينظر ، ابن الأثير ، المثل السائر ، ج ١ ، ص ٢٠٠ .

١٥\_ ينظر، المصدر نفسه ، ج ١ ، صفحة نفسها .

١٦\_ ينظر رابح بوحوش ، اللسانيات و تطبيقاتها على الخطاب الشعري ، ص ٢٧٩ .

١٧\_ ينظر المرجع نفسه ، ص ٢٨٠ .

١٨\_ ينظر ، ابن الأثير ، المثل السائر ، ج ٣ ، ص ٢٠٠ .

١٩\_ سورة الحج ، الآية ٧٨ .